بينه وبينها

بينه وبينها (1) :

يُولَدُ الرجلُ منكم هائماً يتلفَّت، تتقاذفُه الأهواءُ أنّى شاءَ لها.. وشاءت، يستغرقُه أسفٌ في ذاته يتآكلُه على ما فقد، غير مدركٍ لما فوَّت، فيُكدِّرُ عليه ما توهَّمه من مظنَّةِ الصفاء، وتُلبسُ عليه حريّته أسيراً لنقصٍ وإن حازَ كمالَه الأرضيِّ كلِّه.

فإذا ما صادفَ امرأةَ قلبِه، فأيقنَها منه، وعرَّفها له = كانت له كأولِ شهقةِ ميلادٍ يعبُّها بعدَ ظُلمتِه، فهو في حالته تلك، كمن وُلِد مرَّته الثانيةَ معها، ومن نفس وعائها الذي حواها، حتى ليرى وجهه في مقلةِ أُمِّها أُمِّه، وتوافقُ نبرتُه صوتَ أبيها أبيه، فصاروا له أهلاً معَ أهل، وكانت هي منه أصلَ ذاتِه، وكان له بها ...رِضاءه، وتمامَه.

بينه وبينها (2):

وأمّا نحن معشرَ النِّساء؛ فإنَّكَ لتجدُ إحدانا وقد اشتدَّ منها العود واشرأبَّت عليه مخايلُ زهرِ أنوثتها وازّيَّنت = أُترِعت فطابت في عينِ نفسها.. وأترعَت، فهي في حالتها تلك من معارجِ كمالها وبهاء عمرانها؛ كقصرٍ مشيدٍ من لبناتٍ منضودة، أثاثُه مسالكُ الأخيلة، هَرِمٍ على عروشه تحناناً لدبيبِ ساكنه الأوحد في أرجائه: مبعثراً ما انتظم، أو منظّماً كما شاء له الهوى أن يُنظِّم.

أو كغرسٍ تطاولَ ينعاً وإيرافاً...، ناءَ مثقلاً بحمله من أطايبِ ثُمُر، وماله من قاطفٍ يمدُّ يدَ الخلاص من عناءِ ما حملت.. واحتملت.

فهي في مسادر سلطانِها، ومبتعَثِ سطوتها؛ تجدُ ذا الخواء الموحِش في دغل روحها، كالتي فُقِدَ منها وليدُ قلبِها وما ولدت، أو كالتي أعدَّت لسفرها عدَّته، وهيَّأت له، فمتى ما حان، تسمَّرت في أرضِها، مشدوهةً لا تلوي وما من دليل، ولا حتى .. سبيلِ سفر.

صافرتها تزعق وهي تمخرُ عباباً، فلا هلب يشدُّها لموطن رِضائها فتقِر، ولا مواقعَ نجوم تهديها رشَدَ سُبُلٍ فتسعى؛ فإذا ما قدَّرَ لها الإله، وأتمَّ لها وبها واحدَها، وكان لها الساكنَ المعمِّر، ونجمَ شمالِ قحلِ سمائها المتفرِّد؛ ألفَت حظَّها في دنياها، وقبسَ فردوسِها الأعلى.

بينه وبينها (3):

فإذا ما وجدته واستيقنتُه منكِ عينُ روحك = علمتِ حالَه معكِ بعدَ تصرُّمِ الزمان وعَدوِ العقود: ألفةٌ تسبق ما سيكون، تتثالُ بينكما ابتداءً وهو واحدُك، ووعدُ ودادٍ لا يراوحُ حتى يُتمَّ مرادَ الإله!

بينه وبينها (4):

وليس هنالك كامرأةٍ تُسلمُ رجلَها القيادَ أبدا: يُسيِّرُها بحنوِّ رجولته ورضاؤها الحادي، وتفيءُ إلى وارف عزمته، وسكينتُها أخذُه بيدها، فإذا ما التجأت إلى مرافئه وادعة، واستهدت بفناره فاحتواها.. أسلمها زمامَه واتخذَ منها وطنا..!

بينه وبينها (5):

ومتى استويت على سوقك جعلت تقلِّبين طرفَ الفؤادِ تجتلين أسرارَ الوصال، وتسبُكين شذراته بالتعلُّلِ والرجاء، ليبرقَ في خاطرك على أتمِّ ما يكون، ويستوي لك كما يطيبُ الاستواء. وسليمانك – لو تعلمين– تُساقين أنت إليه: تتهادين على ممرَّدِ التقادير، فإذا عرَّفه الإله لك، وعلمه الفؤادُ منك = صهرتِ ما كان من سالف سبائك، وأسلمته حرفة الصياغة، وجعلت– راضيةً– ترقبين..!

بينه وبينها (6):

فإذا ما اعتليتِ خفيَّ سُلَّمه، وخطوت على دروبه تستكشفين مسالكَه: تدقِّين بحكيم خطوك على كوامنه، وتنسابين في أروقةِ حصونه، لا تُعجزك مجاهلٌ ومجاهيل، ولا تُقعدك شبهةُ النشاز، فكنت أنت سماحَه الذي قُسم له = خصَّك بحجازيِّه والبيات، يُفردك وأنت القَرار، فتهيمين في أودية صفائه ونواصيْ إلهامه قريرةً هانئة؛ مرادُ الإله فيكما مقاماتٌ وتواشيح، ومن خلاكما يمضي ولا يلتفت لعوالمَ فيكما تُصاغ، ما صافحت مسامعهم، والصخب فيكما تضجُّ له الآفاق...!

بينه وبينها (7):

أما رأيتِه وقد تجلَّت قوامته فيه وحُقَّت له فكان رجلا: عدا على غائلات أيامك فأحالها سعودا، وسطا على مرير شجونك فأحالها برداً وسلاما، واعترك مع ما يضيرك فأحاله أثراً بعد عين، ثم قعد يترصَّد لحادثات الزمان فيتصدَّى ويُحصِّن، فإذا ما تمَّ لكِ أمانك به: أولاكِ كلَّه، فأنصت لماتع فتونك، وأرهف حسَّه لرغائبك، وسوَّدكِ وهو سيِّدُك، تعلمينها فتزهين به سيِّدا، وهو في ذلك كلِّه رهينُ رضاك، يرتقب هناك، فتزهو فيه رجولته.. ثم يرضى!

بينه وبينها (8):

هو ما رآها يوماً أجمل النساء، وما فتنه منها لحظٌ ولا استرقته مكاحل، ولا تنزَّهت أفعالها في عينه، ولا اكتملت لها محامد، ولكنَّها وقعت في قلبه بتقادير الإله فأفردها، ورأى النقصَ منها كمالاً يميزها، وعُرِضَ له ما خفيَ من محاسنها – لم يلحظها غيره –، فاهتبلها وعدَّها غنيمته، وطار بها يحدِّث عنها مهاجرَ الطير. ولذلك كلِّه تغشَّاه طبعٌ من المسامحة ما عهده، فصار دائمَ الابتسام، ودوداً طلِقا، بل وأعيد ترتيب ذراته فيه مذ اختارها منه الفؤاد، فأضحى للجمال معنىً واحد، وما عداه أصنافٌ يمرُّ عليها؛ تلحظها منه عين رأسه، فتغضُّ عين القلب الطرف.. يملؤها الرضا.

وتجول المحامد: تُعرض على عقله، فيرى الأعلم والأفقه والأذكى، فيومئ برأسه مستحسنا؛ ما كلت عينُ المحبِّ منه أبدا، ولكنَّها المسامحة والحنو والغفران، فتهفو روحه لها هي بعينها، يمسح على نقصٍ فيها بيد محبته.. فتبرأ كأن لم تكن!

بينه وبينها (9):

ما كان أعمىَ أهوج، ولا جامحاً أرعن، ولا تفطَّرت له الأكباد ولا التاعت قلوب، وما اشتكت غائلته سهد العيون، ولا تناقلت أخباره قراطيس وألسنة، فحُفظ عن عيون الخلق فأسداهما التخليص، وتنزَّه عن مجونٍ وجنون، ذلك أن سرى بينهما عذباً فراتاً كما بردى: رقَّ لهما مذ قيل في الأرض هذه لهذا بلحظ القبول، فواعدهما ببردِ الوصال وعذبِ المعين، وألان لهما سبل السمر وأغض، وأدفأ لهما شرابَ السلسبيل، ثم باركهما فأرخى جداوله تسري في العروق بارخاء الجدائل، فاهتزَّ فيهما وربا بهيجاً طيبا.

جهلت هي ذاتها، فما أن وجدته حتى علِمَتها فيها، واستيقنتها منها، فكانت لا ترى صورتها إلا انعكاساً في عينيه، ولا تسمع صوتها إلا رجع صدى نبرته، ولا تبرح الفِكَر عقالَ رأسها إلا إذا غدت تتهادى إليها ممهورةً ببصمته، فكأنما هي الروح تهيم لا تلوي ولا يقر لها قرار، كمن أضاع ثميناً من بعد أن امتلكه في حياةٍ سابقة، ثمَّ فقده = لا تعلم كنهه ولا وصفه فتحتار، فمتى ما وجدته كان النجاة التي قُدِّرت لها وطارت بها إلى عليين..

وتلقَّفها هو، وهي البضعة منه ومُنيته، يصبغها فتنصبغ، ويرفعها فترفعه، يحنُّ إليها وهي معه، فيسبل عليها تحنانه حامداً من قدَّرها له. يجالسها – أول عهده بها - والسكينة تحفُّهما فيُسلم الزمان طبائعه: لا سلطان له عليهما إلا تمكين ما وجدا من ألفةٍ لا يوطِّنها إلا تتابع السنين، وتعاقب الأحداث؛ يجدها منها مذ أبصرتها عين قلبه، فتسري بينهما رائقةً لا شاهقة، جليلةً لا عاتية، تدوم ما دامت الروح، فيستويان بعد عروج... ويسكنان الأزل!